

الأنا والآخر في السرد الروائي-الرواية الجزائرية بين

جدلية القبول والرفض

The Self and the Other in Prose Narratives: The Algerian Novel between the Controvers of Acceptance and Rejection.

د/الوردي غنيمي*

lghenimiyahoo.com

جامعة عباس لغرور خنشلة

تاريخ الإرسال: 2023/04/20	تاريخ التقييم: 2023/07/03	تاريخ القبول: 2023/12/30
---------------------------	---------------------------	--------------------------

الملخص:

تناول المقال صورة الآخر في السرد الروائي الجزائري، من خلال تجربتين روائيتين، الأولى يمثلها الكاتب الكبير الجزائري الطاهر وطار، من خلال روايته الموسومة "اللاز، وهو النص السردي للخطاب الموجه إلى الآخر، القصد منه التعرية وكشف سلوكيات الآخر "المستعمر". من خلال أبطال الرواية سواء الضابط الفرنسي الشاذ، أو جنوده الذين كشفوا عن سلوكيات همجية تجاه المجتمع الجزائري. والثانية رواية الكاتب الجزائري المعاصر أمين الزاوي الموسومة "الملكة"، التي تحمل خطابا متناقضا تراوح بين عاطفتين متناقضتين، الحب والكراهية في آن واحد، فكانت المشاعر المتناقضة التي شكلت الأحداث، فصنعت صورة الآخر بين انفعال الإعجاب والحب، وانفعال الكره، فرسم الكاتب الصورة المتناقضة لشخصيات المتن الروائي، وربما الصورة التي لاتستقر على انفعال واحد، ويرصد هذا المقال الانفعالات المبتوثة في ثنايا المتن السردي الجزائري ممثلا في روايتي اللاز للكاتب الطاهر وطار، والملكة للكاتب أمين الزاوي. كلمات مفتاحية: السرد الرواية؛ الأنا، الآخر؛ المتناقضات؛ المستعمر؛ الجزائري؛ الصيني.

Abstract:

The article deals with the reality of the other in the Algerian prose narratives through two literary works; the first one was Tahar Outtar's novel, *Al-Laz (The Ace)* whose narrative addresses the Other. The novel unveils the behaviors of the colonized "Other" through several characters like the French gay officer, or like his soldiers whose reactions show savagery towards the Algerian society. The second literary work, a novel written by a contemporary Algerian author Amin Zaoui

, is entitled: *The Queen*. Its discourse carries paradoxes between two contradictory emotions which are love and hatred at the same time. The resulting potion shape the events and create the image of the Other that ranges between the emotions of admiration, love, and even hatred. The writer, therefore, draws an image of the fictional characters and how it does not settle on one emotion. This article monitors the emotions spread between the pages of the Algerian prose narratives represented in both novels, Taher Outtar's *Al-Laz (The Ace)* and Amin Zaoui's *The Narration Queen*.

Keywords: ; The novel; the Self and the Other; Paradox; the colonized Algerian, Chinese.

*المؤلف المراسل:

مقدمة:

إن الثقافة الإنسانية تحمل في ثناياها وأحشائها ثنائية الأنا والآخر، فيرمز الأنا للوطنية المسحوقة والمقاومة المستمرة عبر التاريخ، في مقابل الآخر الذي يرمز للهيمنة والسيطرة السياسية والاقتصادية والعسكرية وحتى الفكرية، فكل حضارة راقية تنشئ علاقة ترانبية أو هرمية، تستعبد ماعداها من الثقافات المهمشة لتنفرد بالتفوق أو القوة في تجلياتها العلمية والسياسية أو العسكرية¹، وإن كانت الثنائية – الأنا والآخر – في حاجة دائمة للتصالح مرة والتناظر مرات أخرى، وهذا ماتجلى في المتن الروائي الجزائري، ف جاء المقال ليناقد مدى تجسيد المتن الروائي الجزائري لهذه الثنائية. وكيف عبرت شخصيات النص الروائي الجزائري- سواء رواية اللالز للطاهر وطار أو رواية الملكة – لأمين الزاوي – عن انفعالات الأنا؟، وهل كشفت "الآخر" سواء في مضممراته أو في سلوكاته التي لاقت رفضا واستهجانا في الرواية الأولى، وقبولاً ثم رفضاً في الرواية الثانية؟، وماهي المشاعر المتناقضة في الروايتين؟ وكيف تجسد الآخر في الروايتين؟.

1- إضاءات لمفهومي الأنا والآخر

إذا كان الأنا في الثقافة الفلسفية ملازماً للآخر، حيث لاندرك معنى أحدهما بمعزل عن الآخر، لذا يصعب تحديد معنهما لكثرة حملاتهما الفلسفية والثقافية والسياسية، فبدأت الفلسفة اليونانية في طرح إشكالية الأنا والآخر، فهما وتعالقا وتعقيدا، فأرسطو يرى "أن الشيء إما أن يكون هو هو، وإما أن يكون مخالفاً لذلك، فهو بالنسبة إلى كينونته هو هو، وبالقياس إلى الغير مخالف له"² فكل ذات ذات لنفسها، وآخر لغيرها.

لقد ارتبط لمفهوم الأنا بالمهية والوجود، حيث أسهمت الفلسفة الوجودية في مناقشة مصطلح الأنا لقناعتها بأن السؤال عن الأنا هو التساؤل عن الوجود، بأن "هو أو لا وجودي أنا"، أنا الذات المتفردة"³، فالفكر مرتبط بالوجود وبالذات المفكرة، ولعل مقولة الفيلسوف الفرنسي ديكارت R.DESCARTE "أنا أفكر إذن أنا موجود"⁴، ترسخ أن الإنسان يعتمد على ما يقوم به من عمليات تفكيرية، ووعيه بالموجودات الخارجية المحيطة به، وحاول أن يقيم مفارقة بين الأنا الفردية الواعية للغير، فأراد عزل نفسه ورفض الاستعانة بالآخر في أثناء عملية الشك، ملغياً بذلك أهمية الغير في تكوين المعرفة الإنسانية، فالتفكير عنده مبني على الشك الذي يصل إلى الحقيقة وقد رفض بول ريكور P.RICOEUR هذا الطرح مؤكداً أن الحقيقة "ليست كذلك ولكنها جهد مستمر للخروج من ذاتي والإقامة عند الآخر، كي أصح معرفتي ورؤيتي لِنفسي ومعرفتي لذاتي"⁵، وقد سمته الفلسفة العربية بالنفس المدركة، "وهي تعبر عن الحياة والفكر معا"⁶ وهي مرتبطة بالهوية والنفس، وهي حقيقة مميزة عن البدن، وإن كانت متصلة به، والأنا تمثل الإنسان، وما يميزه من مقومات تميزه عن غيره، فبول ريكور يرى أن الذات ليست هي الأنا نفسها، "فالكلام عن الذات ليس كلاماً على الأنا"⁷، فالذات شاملة للأنا عنده.

يقترن مفهوم الأنا في الفكر الفلسفي بالآخر فهما متلازمان، فلا يمكن إدراك الأنا دون الآخر، لذا شق على الفلاسفة والنقاد والمفكرين عموماً تحديد مفهومة، أو الاتفاق على تحديده، فبقي متأرجحاً بين المفكرين بين الأنا والهو، خاصة في الفكر النفسي.

أما الفيلسوف نتشة F.NIETZSCHE فقد ضمها إلى فلسفة العلم، "حيث لا معرفة فوق إمكانية العقل أو خارجها، معرفياً ووجودياً، أصبحت الأنا المنطلقة عنده هي مركز نظرية العلم"⁸. وقد ربط هيدكر M.HEIDEGGER بالأسقوط، فقد رمى بالآخر في هذا العالم، "فغيره ما كان

يمكن وجودي أن يكتشف نفسه، ولولا هذا الظل وجودي في إمكانيات الوجود لانهية لها، أي أن سقوطي هو الذي حددني، وبتحديدي تحقق وجودي العيني⁹، ويقصد هيدكر بالسقوط تواجده في هذا العالم مع الآخر أدى إلى تحقيق كينونته التي لاتتم بمعزل عن الآخر، ونجد ميشال فوكو M.FOUCAULT في تعريفه للآخر على أنه "تعلق بالذات، وهو الفضاء المحدود الذي يتشكل فيه الخطاب"¹⁰.

أما احمد ياسين فعرفه " بأنه ضمير متكلم قائم بذاته، لاتنازعه أو يشاركه في ذاتيته وبصفته أحد آخر"¹¹، فالأنا عنده هو الذات، وهو النفس المستقلة عن الآخرين.

أما الآخر فتعددت -أيضا - تعاريفه وتنوعت مفاهيمه، فقد ارتبط بمفهومي الأنا والهو، فالآخر هو مقابل للذات المفكرة، وللآخر حضور دائم عند الذات، وفي جميع مراحل الحياة "ولكل وعي للذات، هو وعي بالآخر"¹².

فالآخر أو -الغيرية عند البعض- هي صفة أو نسق من العلاقات تتشكل عبرها صورة الآخر وهويته وتفاعله، فأصبحت أيضا بمفهوم الصورة على اعتبار أننا ندرك الآخرين عبر تشكيلات من الصور تخضع لإجراءات التحول والانتقال للوقائع التي يتكون منها الآخر، فقد أصبح الآخر أمرا ملموسا في الرواية الجزائرية، لاسيما الآخر الغربي، وبالتحديد الفرنسي، فالآخر يختلف - غالبا- عنا ديننا وثقافة، وربما عرقا، ما يجعله على الساحل الآخر ويتطلب جسرا للوصول إليه أو التواصل معه، فتلقي الآخر في السرد الروائي الجزائري يشكل وحشية وبشاعة الآخر - الاستعمار-، بغض النظر عما إذا كانت صورة الآخر مطابقة للواقع أم لا، المهم صدق التعبير عن الأحاسيس تنعكس على صدق الصورة.

إن التاريخ يذكر لنا ذلك التجاذب العسكري والثقافي الدائر منذ قرون بين الغرب والمشرق الإسلامي، أو بين "الأنا والآخر"، وقد يصبح أكثر قسوة في ظل تنامي الصين وروسيا، التي أصبحتا الآخر في تصنيف الغرب الاستعماري، فقد سيطرت الهيمنة الأحادية للمستعمر القديم، الذي يجعل من الآخر أداة استهلاكية للغرب، وتابعا اقتصاديا وسياسيا وثقافيا للدول المُستعمَرة مازالت تحمل في ذاكرتها الفكر التسلطي، فتتعامل من خلاله مع الدول المُستعمَرة باستعلاء - فرنسا/ الجزائر.

- إن العالم تتنازعه إرادتان: إرادة صراع البقاء، مقابل إرادة السيطرة والهيمنة، لذا يمكن تحديد العلاقات بين الأنا والآخر في مجموعة من المستويات، فإما أن تكون هذه العلاقة: -علاقة تصادم كصراع الحضارات والصراع التجاري والسياسي والعسكري.
- علاقة مصلحة يتبادل فيها الأنا والآخر المصالح والمنفعة .
- علاقات متوازنة لتعادل القوتين وخوفهما من الصدام، والخوف من تفوق الآخر .
- علاقة الميل والهوس وهو ما عرفه مالك بن نبي بالحساس الأنا بضعف الآخر .
- علاقة مثاقفة وأخذ الأنا من الآخر، وأخذ الآخر من الأنا.

2- حفريات الأنا والآخر في المتن الروائي الجزائري

أرجع بعض الباحثين حضور ثنائية الأنا والآخر في السرد العربي، إلى كتب السيرة فلم تتضح معالم هذه الثنائية إلا في أعمال رواد فن الرواية في الوطن العربي، كمحمد حسين هيكل في روايته "زينب"، و شكيب الجابري من سوريا، بعد احتكاكهم بالآخر والانهمار به وبحضارته وثقافته، فجعلوا من السلطة والحكم - الآخر- ومن الإنسان الكادح الفقير البسيط - الأنا-، فحاولوا كشف خبايا الدكتاتورية وحكم الاستبداد للآخر، وذهب بعض الروائيين في مسلك آخر، فكشفوا بشاعة الآخر - المستعمر- الذي حملوه كل رزايا وتخلف المجتمعات العربية، من خلال ممارساته الاستعمارية، ونهب ثروات الشعوب ومحاولة طمس هويته، والقضاء على دينه وتغيير لغته .

نلمس صورة الآخر في جل المتون الروائية الجزائرية خاصة بعد الاستقلال، ذلك الآخر الذي يمثله الاستعمار الفرنسي، والمختلف ديناً وثقافة وعرقاً عن الأنا، الذي يمثل الهوية والوطنية الجزائرية، فجاءت أغلب السرود الروائية الجزائرية مؤثرة في القارئ الجزائري خاصة والعربي عامة، حيث سلط الضوء على أجزاء من تاريخ الأمة الجزائرية، وكشف عن واقع الاستعمار الفرنسي وممارساته الوحشية، جعله يصور الآخر بانفعال يختلف عن انفعال صورة الأنا، "فليس من المعقول أن يرسم لنا الأديب صورة الذات بالدلالات نفسها التي يرسم فيها صورة الآخر، وإن كان يستخدم الكلمات ذاتها"¹³ .

إن الحفر في المتن السردي الروائي الجزائري نلمس ارتباطه لمختلف السياقات التاريخية التي مرت بها الجزائر منذ نشأتها، وأم القضايا التي رافع عليها المتن السردي الروائي الجزائري في

وجه الآخر الغرب المستعمر هي الهوية الجزائرية، "حيث صار الغرب الحضاري على درب الغرب اللاهوتي في ثقافة النفي والإنكار والاستئصال"¹⁴، فكانت ثقافة الاستعمار محو الآخر وإلغاء وجوده بوسائل متعددة، ومحو خصوصية الشعوب وطمس معالم حضاراته وتراثه الثقافي، فمرت الجزائر على أبشع استعمار عرفه التاريخ البشري، "حاول إفراغ عقل الإنسان الجزائري من هويته وشخصيته"¹⁵، فنشأ الأنا الثائر الذي قاوم الآخر بالوسائل المتوفرة، واستطاع الانتصار ودحر المستعمر ليتحول إلى الآخر الذي حاول إنكار الهوية الجزائرية والاعتراف بتاريخها العريق، وورثت الأجيال اللاحقة بعد الاستقلال كراهية هذا الآخر - المستعمر - فعبر الأدباء والمثقفون على لسانهم عن الكره الذي سار في جسم المتن السردي الروائي الجزائري منذ الاستقلال، فأصبح المستعمر هو الآخر الذي صورته المتن الروائي الجزائري في أكثر المشاهد تصويرا للمراحل التاريخية والإنسانية، وللتطورات الأخلاقية والفكرية، فتعمق مفهوم الأنا والآخر خاصة في السرد الروائي بعد الاستقلال فبرز تيار الدفاع عن الهوية الوطنية، والتأكيد على تجذرها في التاريخ القديم والحديث.

إن قراءة مضامين الخطاب الروائي الجزائري يلمس مقاربة السارد الجزائري للذات الوطنية، والآخر الفرنسي؛ لأن التواجد الفرنسي في الجزائر شكّل منعطفا حاسما في مختلف الأعمال السردية الجزائرية، التي أزعجت وشخصت الوقائع التراجيدية التي مارسها المستعمر - الآخر - بمختلف تقنيات السرد، من الوصف إلى السرد إلى الحكيم إلى التصوير والاسترجاع والاستباق، وغيرها من الشروط الفنية لبناء السرد الروائي داخليا وخارجيا.

مال السرد الروائي الجزائري على عمومته إلى البساطة والوضوح، وتصوير الواقع المعيش، ونقل الواقع التاريخي - خاصة - بأمانة في أغلبه، مع قلة الرمز والتعابير المشفرة، فجاء ناقلا للواقع في لمسة جمالية شاعرية تحقق الصورة المؤثرة في المتلقي.

وقد تميز السرد الروائي الجزائري في مرحلة ما من تاريخ الجزائر بتصوير الآخر الغربي - الفرنسي - معريا أعماله الهمجية وسلوكاته اللاإنسانية اتجاه المجتمع الجزائري، فتمركزت جل الأعمال الروائية حول سؤال الهوية، بوصفه سؤالا محوريا يفرض البحث عن الذات، وبيعثها من جديد بعد أن حاول الآخر - المستعمر - طمسها، وهو تساؤل يفرض حضور الآخر، "حيث

يتقاسم الأنا والآخر قدرا متساويا من مشاعر الخوف من بعضهما البعض، بعد أن تمتع الآخر – الغربي- طوال حقبة المد الاستعماري بامتياز تقويض الآخر¹⁶، فعاش المجتمع الجزائري في محيط القمع والتسلط والاستغلال، فقد من خلاله من كرامته وإنسانيته واستقراره الشيء الكثير، فركّز الروائيون على تلك الصورة، التي تحمل تناقض المستعمر الذي يدعوا للمساواة والحرية والعدالة، فكانت تلك الثنائية المناقضة – الهمجية والاستغلال والقمع، مقابل العدالة والمساواة المزعومة التي تدعو إليها الثورة الفرنسية- فحمل المتن الروائي الجزائري تلك الشحنات القوية والمتناقضة في حمولات لغوية وفنية ميّزت السرد الروائي الجزائري، لنحكم عليه مع بعض النقاد على أنه سرد ثوري يدافع عن المستضعفين والمظلومين .

ومن أمثلة المتون الروائية التي كشفت عن الوجه البشع للاستعمار الفرنسي الأدبية أحلام مستغانمي في روايتها "ذاكرة الجسد"، التي جاء على لسان بطلها "خالد" "وكان سجن الكدية وقتها ككل سجون الشرق الجزائري، يعاني من نقص رجولة، إثر مظاهرات 8 ماي 1945 التي قامت في قسنطينة وسطيف وضواحيهم، أول عربون للثورة متمثلا في دفعة إلى من عدة آلاف من الشهداء، سقطوا في مظاهرة واحدة من المساجين التي ضاقت بهم الزنانات"¹⁷، فصورت الذات –الكاتبة – مشهدا مرعبا للآخر يحمل همجيته اتجاه الشعب الجزائري، وتبرز هذه الانفعالات في المتون الروائية في كل من روايتي اللاز للطاهر وطار، والمملكة لأمين الزاوي.

3- رواية اللاز والآخر الفرنسي.

يعتبر الروائي وطار الطاهر من أهم الكتاب الجزائريين الذي ناضلوا من اجل كشف الوجه البشع للاستعمار الفرنسي، وتعرية أعماله الوحشية، خاصة وأنه عاش التجربة. وتكشّف عن واقع الاستعمار الفرنسي، فبطل الرواية اللاز يرمز إلى الثورة والشعب، فهو اختار طريق التمرد دون تأثير خارجي، فعبر عن الشعب بكل تطلعاته وطموحاته فقد فهو يمثل الكل، فقد جاء على لسان أحد أبطال الرواية (قدور) متسائلا هن هوية اللاز "من يكون أبوه ؟لاشك أنه ابن جميع الاشقياء"¹⁸، فقد رسمت روايتي "اللاز" المشاهد والصور الكاشفة لهمجية المستعمر، من خلال علاقة الضابط الفرنسي المشبوهة ببطل الرواية "اللاز"، خاصة بعد أن قرر اللاز تغيير مجرى حياته، ليتحول إلى مناضل ثوري ويتمكن من الفرار ملتحقا بالثوار ويلتقي بالمجاهدين من أمثال: قدور وزيدان وحمو وغيرهم، يتمكن الاستعمار الفرنسي من القبض

عليه وتعذيبه ، فجسد السرد الروائي بشاعة معاملة السّرْجَان "ستيفان" للبطل- اللاز- باستخدامه القوة المفرطة والتنكيل به، من خلال مشهد استعمال الجنود القوة والعنف بدفع البطل "اللاز" واستعمال أعقاب البنادق، والدماء تسيل من أنفه" وهو يترنح تارة ويقاوم أخرى"¹⁹، تصور الرواية مشهدا دراميا مرعبا لبشاعة التنكيل باللاز الذي يمثل مل المجاهدين وأحرار الجزائر: "وما إن انبرت الأضواء حتى جردوه من ثيابه وأوثقوه بأسلاك نحاسية ، وقذفوه فوق منضدة خشبية تثبت على سطحها مسامير حادة وانهمكوا في ضربه... 20" فكشف عن سلوكيات الآخر الوحشية التي تتناقض مع مبادئ الحضارة التي تتغنى بها فرنسا.

كشفت شخصية "بعطوش" العميل السابق للمستعمر الفرنسي عن الصراع الداخلي بين الوطنية والكسب المادي ، انعكس بقتل القبطان وإنهاء ذلك الصراع المتأجج في صدره، فتصف الرواية مشهد الانتقام من القبطان: "ثم هوى عليه بيدين مرتجفتين وانهمك في خنق أنفاسه بكل ما أتى من قوة ... استل خنجره وراح يطعن أينما صادف ... ظل يطعن ويطعن و يطعن..."²¹ وكانه ينتقم لكل المعذبين من الشعب الجزائري ، ويقتل في نفسه خطيئته عندما كان عميلا للجيش الفرنسي.

لقد ازدري الروائي الطاهر وطار ، الذي يمثل الهوية والوطنية الجزائرية من صورة الجندي الفرنسي وتكوينه الفسيولوجي، فإذا كانت القوة التي يستعملها مصدرها العناد والعدة ، فتنقصه الفحولة التي هي صفة مركزية للشجاعة والرجولة، فيصف الكاتب "السرجان" ستيفان الشخصية العسكرية "فهو في حدود الأربعين ، متوسط القامة ملامحه أنثوية. نحيف الجسم.. قصير القامة، ابيض البشرة،..."²² فتحقق الصورة بجدها الإيجابي، وتكشف عن هشاشة الجندي الفرنسي²³ وعدم قدرته على مواجهة الآخر- الشعب الجزائري، كما عرّى الواقع المؤلم لشخصية ضباط فرنسا ، فيصفهم بصفات المكر والغباء والشذوذ ، يقول الضابط مخاطبا اللاز وهو بين يدي عساكره: "أعرف أنني لا أطيق الحياة في هذه القرية بدونك، إنني أحبك لأشياء عديدة ، أنت لا تسكر مهما شربت ، وتحسن لعب الورق ، وتتقن الشتم بالفرنسية والعربية معا"²⁴.

لقد حرك الروائي الطاهر وطار أبطال روايته وفقا لسماتهم الشخصية، سواء أكانت شخصيات محلية تمثل الأنا، أو شخصيات أجنبية تمثل الآخر، ووفق مستويات لغوية مشبعة بالدلالات الموحية، مع الحوار البسيط الذي يحقق المعنى المجرد، كاشفا عن ممارسات الآخر - المستعمر-، فيقول الضابط عن الشانبيط، "ترى ما هذه الأخبار التي لا يمكن تأجيلها؟، أما ما كان الأمر بوسعي أن أتثبت باتهامه حتى ينال القسط الوافر من التعذيب"²⁵، فاستطاع الطاهر وطار أن ينزل شخصية الفرنسية إلى الحضيض وإلى أسفل السافلين"، فلا يمكن أن يكون مثل هؤلاء في رتب ومكانة ليدوسوا على شرف الرجال الشرفاء"²⁶، وهو حكم إدانة للمستعمر وإنزالهم المنزلة المذلة، وتحقير الجندي الفرنسي، وهو تحقير للدولة الاستعمارية البغيضة، ومحاكمة لأعمالها الوحشية .

قدمت رواية اللام بشاعة الآخر المستعمر في تعامله مع الثورة، وأسقطت الضابط الفرنسي في أتون الرذيلة والعلاقات المشبوهة، فسقط الجندي الفرنسي أخلاقيا، بعد أن سقط إنسانيا وتجسدت العلاقة القائمة بين الأنا اللام، والآخر الضابط الفرنسي في الاستغلال بكل الوسائل، بما فيه من قبح وبشاعة، فلم يكتفي الآخر المحتل بنهب خيرات ومقدرات البلاد الأنا، فتخطى الحدود الأخلاقية بأن يطالب بالإبقاء على أكثر رغباته شذوذا، بعيد على الإشكال المعهودة للنهب والاستغلال في التاريخ الاستعماري. فمشاركة الجندي الفرنسي في الحرب الجزائرية، "لم يكن رغبة في الدفاع عن وطن، بل هو نوع من الطمع المادي، أكثر من التطوع المزعوم، فهو مدرك لقيامه بشيء ليس من حقه، وغير مقتنع به، لأنه عندما يقع في يد الثوار، فهو عاجز كل العجز"²⁷.

إن البناء الفني في الرواية لشخصية الآخر، اتسمت بالقوة الفنية مرة والضعف مرة، والشذوذ مرة أخرى فكان الروائي واقعيًا في تسجيله للأحداث، بدل الإيجاز والترميز، فلم يكتفي بالإشارة إلى شذوذ الضابط الفرنسي، بل سعى الأشياء بمسمياتها، فكانت شهادة فنية صادقة عن همجية الآخر -المستعمر- وهشاشة شخصية جنوده، وفقدانهم للفحولة، وشذوذهم الجنسي، وسقوطهم في مزبلة التاريخ التي لا ترحم.

4- رواية الملكة بين الكره والإعجاب؛ أو التناقض المتوازن .

لم يقتصر المتن الروائي الجزائري على إظهار عواطف الكره للمستعمر الفرنسي، بل تعداه إلى الآخر البريطاني والألماني والأمريكي والصيني، فلكل -الآخر- صورته التي تفاعل معها الأنا أو الذات الجزائرية، فالآخر الإسباني يربطه التاريخ الإسلامي بالأندلس، التي كانت يوماً جزءاً من تاريخ الجغرافيا الحضارية للدول التي قامت في المغرب القديم، وصورة الآخر الألماني وتعاطفه مع القضية الفلسطينية، والآخر الأمريكي المتميز للسعي للسيطرة على العالم، المتغطرس الذي يكيل بمكيالين إزاء العالم الإسلامي خاصة، ورميه بالإرهاب والهمجية، فاتسم الخطاب الروائي فيمكن أن يكون الآخر من الجزائري بالتنوع والتغيير تبعاً لطبيعة الآخر ومعاملته للآخر لأننا الغرب أو الشرق ووفق الظروف المحيطة به.

استطاعت الرواية الجزائرية أن تغير وجهتها من الغرب إلى الشرق، تنقل لنا تجربة الآخر الصيني من خلال متن رواية "الملكة" للكاتب الجزائري أمين الزاوي 2008، الذي عاش الصينيين في مدينتي شنغهاي والعاصمة بكين، واحتك بهم في الجزائر كمتعاونين في شتى المجالات، وخاصة البناء والتجارة، وقد مكنتهم المشاريع الطويلة الأمد بالاحتكاك بالمجتمع الجزائري، وتبادل المعرفة للعادات والتقاليد والسلوكيات المختلفة.

تتلخص الرواية في ثلاثة مشاهد رئيسية، تحركها أحداث سابقة بتقنية "فلاش باك"، ولاحقة ينسج الروائي من خلالها انتقال المهندس الصيني يو فروض "الذي سمي يونس الشنوي" إلى العمل في الجزائر كمسؤول عن المشاريع السكنية الصينية في الجزائر، وصاحبه الشاب "صان صون" الذي لازمه حتى في غرفته، وبعد وفاة وأحداث متنوعة تلخص قضايا متعددة منها السياسية والتاريخية والدينية والأخلاقية.

ينظر قطاع واسع من الشعب الجزائري إلى المجتمع الصيني نظرة إيجابية، بل يرى قطاع واسع منهم أنه المثل الأعلى في العمل الجاد والانضباط، وحب العمل والتقدم التكنولوجي، وأنه رائد العلم الجديد والتكنولوجيا التي تطوف حول العالم، فقد تعاملت الجزائر مع الصين في مجالات متعددة اقتصادية وسياسية وثقافية، حتى تعدى حجم المعاملات الاقتصادية معه حجم المبادلات مع فرنسا، فهو البلد الذي يملك من الإمكانيات المادية والتكنولوجية ما يؤهله أن يتبوأ المراتب الأولى عالمياً.

تجلى إعجاب الأنا الجزائري بالأخر الصيني من خلال رواية الملكة، وهو ما عبر عنه عبد الرحمان سائق سيارة الإسعاف للمستهزئين بالجنس الصيني: "الم يقل الرسول ﷺ اطلب العلم ولو في الصين، فكل العلوم موجودة في الصين"²⁸، فهو اعتراف صريح بتفوق العنصر الصيني، علما وانضباطا، "الله خلقهم للعمل"، لقد قام عبد الرحمان بجلد الذات الجزائرية التي وصفها بالكسل، فخاطب الصينيين قائلا: "أنتم الذين ستبقون في هذه البلاد، بعد أن يهجرها أهلها جميعا، سيخرج الجزائريون من هذه البلد، لتكونوا أنتم ورثة هذه الأرض بعد أن يفسدها المفسدون من أهلها، أنتم من سيعيد الحياة إليها، إلى أرضها زراعا، وصناعتها إبداعا"²⁹، فالصيني يخلص في أداء عمله ويقدّم واجباته على حقوقه.

لم يقتصر إعجاب السواد الأعظم بالشعب الصيني الآخر، بل تعداه إلى السلطة الرسمية، التي سهلت كل الإجراءات الإدارية، وأزاحت كل العراقيل أمام الأفراد والشركات الصينية "إن السلطة الجزائرية لا تضع عراقيل بيروقراطية في وجه الصينيين للحصول على الإقامة، فهم منضبطون يحترمون التقاليد، ولا يظهرون في الحياة العامة، لا في المدينة ولا في الأحياء... فهم يعملون كثيرا دون ضجيج، فهم النمل الشغيل"³⁰.

ففي العمل الروائي نفسه تنقلب الانفعالات إلى النقيض، من الحب والإعجاب بالأخر، إلى كره ومقت الآخر نفسه، انفعال تعبر عنه طبقة أخرى المجتمع الجزائري - الأنا-، التي ترى أن الصينيين بما يحملونه من تقاليد وعادات تختلف بشكل جوهري مع عادات وتقاليد المجتمع الجزائري، فهم يفسدون المجتمع الجزائري ويغيّرون من عاداته وتقاليد وسلوكياته وحتى من معتقداته، فهم يمارسون سلوكيات يأنفها المجتمع الجزائري، فوصفهم المتن الروائي قائلا على لسان أحد أبطاله "لقد وصل أكلوا لحوم البشر والأفاعي والحشرات حافلاتنا... سيغزون البلد ليأكلوا جميع القطط والكلاب الضالة، و الخنافيس والذباب"³¹، لقد استنكر الأنا سلوكيات وعادات الآخر، التي تتعارض مع معتقداته وعاداته، وكأنه نسي صورة الصيني العامل المثابر المنضبط، لتتحول إلى صورة الوحش الذي يلتهم كل شيء، فلا حواجز أخلاقية ولا دينية تقف أمامه وتردعه عن هذه السلوكيات الشاذة في نظر الآخر.

إن الأنا الرافضة الممثلة في الذات الجزائرية انطلاقا من موقفها المعجب بالأخر الصيني تتغير وتبدل انفعالاتها بمجرد المساس بالمرأة، التي تعتبرها الذات الجزائرية جزء من مقوماتها

الاجتماعية وحتى الدينية، فسكورة ترى في الشنوي (الصيني) الخلاص من عذاباتها "فقد شعرت به يتغلغل في دمي بكل غريبته وغرابتة"³²، لقد ارتمت سكورة في أحضان الآخر المنقذ الوحيد لها من غربتها النفسية، إلا أن الأنا الجزائري يرفض مثل هذه العلاقات، فتعرضت سكورة لوابل من الشتم من طرف مجتمعا - الأنا-لأنه يرفض إقامة علاقات غرامية مع الغريب، يقول لها صاحب المطعم "اسمعي ياسيدة نحن لا نريد في هذا المحل شنويين مع جزائري أصيل"³³.

فنظرة الأنا للآخر غالبا ما ترتبط بالهوية، فالعلاقة بين جزائرية وصيني تؤدي إلى فقدان هوية المجتمع الجزائري، وتتغير حتما بالتناسل مع الآخر، بالرغم من أن المرأة لا ترى مانعا من الارتباط بالآخر الصيني.

لقد تقبل المجتمع الجزائري الرجل الصيني كعامل ماهر في شتى مجالات البناء، لكنهم رفضوه عندما يتعلق الأمر بالمرأة وتغيير الجنس وإدخال عناصر جديدة للجنس الجزائري، فقد كان رد الجزائريين على العلاقة بين سكورة والشنوي غاضبا ومستهرا ومذكرا بفحولة ورجولة الجزائري فقال أحدهم:

الصينيون يخطفون جميلاتنا... أين هي الرجولة؟³⁴

وقال آخر: "جزائرية تختلي بصيني يأكل لحم الكلاب، والله تستحق الرجم في الشوارع"³⁵ لم يكن الآخر الصيني يهدد تقاليد وعادات ومعتقدات الأنا فحسب، بل يشكل خطرا على وجوده وكيونته، فهو تهديد صريح للمدينة وسكانها "سمعت أن من علامات يوم القيامة، أن يعوم الجنس الصيني على الدنيا، إننا نقرب من الساعة، سيجيء الصينيون على جميع الحيوانات والحشرات ولن يبقى على هذه البسيطة من الأجناس أحد سواهم"³⁶، فالخطر القادم والداهم والذي ينذر بفناء الأنا وتعويضه بالآخر الصيني واقع لا محالة، لقدرة الصيني على الإتيان على الأخضر واليابس في هذه البسيطة، فالخطر الذي يمثله الآخر لا يقتصر على الأنا فقط، وإنما يتعداها إلى البشرية جمعاء.

فقد شكلت الرواية ثنائية الأنا والآخر في تبدلاتها في المواقف والانفعالات بين الرفض والقبول للآخر، فإذا كان الأنا يمثله شخصيات جزائرية منها سكور المرأة الجزائرية التي تجسد موقفا

بارزا في الرواية بارتباطها بالآخر الصيني الذي يمثلها الشنوي ، فإن الرواية تمثل ملامح التضاد ، بين حضور الحب وغياب الكراهية ، ثم الصراع القائم بين الأنا والآخر ، لتبرز تلك التناقضات في المشاعر ، بين الإعجاب والحب ، ثم الكراهية ورفض الاندماج مع الآخر حتى في التناسل والمصاهرة.

لقد شكل كثرة حضور الصيني في المجتمع الجزائري فوبيا الغزو ، والاستيلاء على الأرض بعد أن تم تحويل أموال الشعب إلى المجتمع الصيني ، فتحول إلى أيضا إلى صورة الغربي الذي كان همه الاستيلاء على خيرات الدول الضعيف ، وتنافس الدول الاستعمارية في مراقبة بعضها وتقسيم خيرات الدول الضعيفة كغنائم حرب بينها ، فيقول عن الأمريكيين "إن الأمريكيين ذئاب ... إن وجود أبناء التنين في الجزائر بدأ يقلقهم ، سياسيا ، واقتصاديا ، وتجاريا ، وهم يعرفون أن عيون الصينيين على الصحراء ، بترونها ، وشمسها ، معادنها ، إنهم سيضعون يدهم إن آجلا أو عاجلا على هذه الثروة.. إنهم بذلك يزيحون الشركات الأمريكية في الصحراء"³⁷ ، فالعلاقات الاقتصادية والسياسية بين الأنا الجزائري والآخر الصيني تسير نحو الاستيلاء والاستلاب ، فهو توجس من الأنا وخوف كامن في الأعماق من الاستعمار حتى وإن كان الغزو اقتصاديا وسياسيا ، لأنه سالب للحرية وناهب للثروة ، فلا يختلف عن الاستعمار الفعلي بتاتا.

لقد عاش الأنا تناقضا انفعاليا تراوح بين الإعجاب بالآخر مرة ، وكرهه مرة أخرى ، فقد كشف الآخر بنفسه هذا التناقض ، "وأبدى استغرابا ودهشة بسلوكيات الفرد الجزائري وتصرفاته في صمت"³⁸ ، فعبّر الصيني كاشفا الذات الأخرى قائلا: "فالجزائري على الرغم من ظاهره القاسي إلا أنه إنسان رومانسي ، لا يتم كثيرا بالحساب والفلوس ، يتحدث كثيرا عن الرياضة وموسيقى الراي ، المساجد مليئة يوم الجمعة ، والملاعب الرياضية أيضا ، وسهرات الراي الصاخبة ، علم متناقض ومثير"³⁹ .

تجسدت رغبة الأنا في عدم القبول بالآخر ورفضه مهما تعددت إيجابياته ، فواجهه في بعض المواقف بألفاظ نابئة فأهان الآخر ، ما جعل هذا الأخير يتوارى عن الأنظار نهارا ، ويكتشف المدينة ليلا فيتعامل بكل الحذر مع الأنا بالرغم من تغيير الآخر اسمه الصيني الذي يمثل هويته ، في محاولة منه للاندماج مع الأنا إلى اسم عربي لعله يكون مقبولا لدى الآخر ، يقول يونس الصيني "بيننا والأهالي ودّ مشوبّ بالحذر لا أدري مصدره"⁴⁰ .

الخاتمة.

لقد مر المتن الروائي الجزائري على فترات تاريخية ميزت مستوى مضامينه، فكانت الفترة التي أعقبت الاستقلال فضاء خصبا لإبراز جرائم ووحشية الآخر المستعمر الفرنسي ، الذي عاث في أرض الجزائر فسادا؛ نهبا وقتلا وتنكيلا وتعذيبا وتشريدا ، فكان تركيز السرد الجزائري إظهار الكراهية التي في نفوس الجزائريين للمستعمر الفرنسي ، فصوره المتن الروائي الجزائري في أبشع صور الضعف النفسي وتخليه عن القيم التي نادى بها الثورة الفرنسية يوما ما ، العدالة، الحرية، المساواة، وكانت رواية اللازم من السرود الجزائرية التي تمثل تعرية الآخر، وكشف أعماله البغيضة وسلوكياته الشاذة.

لقد تميز الروائي الجزائري وطار بقدرة تجريبية التي مزجت الأصالة بالواقع الاجتماعي، فكشف في متنه السردى عن معاناة الأنا – الشعب الجزائري- طيلة حرب مدمرة دامت سبع سنوات، وعرّى الوجه القبيح للآخر من خلال ممارساته الوحشية، فحق أن يُوصف " بأب الرواية الجزائرية"⁴¹، تبعا للتطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي للمجتمع الجزائري، وبرز جيل من الروائيين الشباب مارسوا التجارب المختلفة وعاشوا العالم الجديد، وتنقلوا بين البلاد والحضارات، فتنوع السرد الجزائري وتغيرت نظرة الأنا الجزائري إلى الآخر، فتغيرت المفاهيم وتحولت النظرة الكلاسيكية للإستعمار، فتحول إلى استعمار غير مباشر وشمل الاستلاب الثقافي، والاستغلال الاقتصادي، فواكب المتن السردى الجزائري التطور، فتم الإعجاب بالآخر مرة لما تميز به من تطور وانضباط وتقيد بالتعاليم السياسية، وبين عاطفة الكراهية للآخر خوفا من السيطرة على خيرات البلاد واحتلالها اقتصاديا، وتغيير العادات والتقاليد الجزائرية، وكانت رواية الملكة خير مثال لتناقض عواطف الأنا بين الإعجاب مرة والكراهية مرة أخرى للآخر، فبالرغم من اختلاف زمن الروائيتين وكذا التجربتين، فرواية الأولى حديثة عايشت معاناة الاستعمار فرفضته، الرواية الثانية معاصرة عايشت ما يسمى الاستعمار الغير مباشر في تجلياته المختلفة، تراوح موقفها بين الرفض والقبول للآخر.

المراجع

- 1- محمد شوقي الزين، الذات والآخر، كتاب مشترك بين دار الضفاف بيروت، ودار الأمان الرباط، ودار الاختلاف الجزائر، ص 91.
- 2- أمقران حكيم، البحث عن الذات في الرواية الجزائرية، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، 2005، ص 8.
- 3- المرجع نفسه، ص 9.

- 4-ديكارت رونيه1985، مقال عن المنهج، تر، محمود محمد الحصري، الهيئة العامة للكتاب، مصر 1، ط3، ص214.
- 5-ريكور بول، 2005، الذات عينها كالآخر، تعليق وترجمة جورج زيناتي، ط1،، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ص22.
- 6--صليبا جميل، المعجم الفلسفي، 1982، ج1، دار الكتاب اللبناني، ص139.
- 7-ديكارت رونيه1985، مقال عن المنهج، ص218.
- 8--الحداد عباس، الأنا في الشعر الصوفي، ط2، دار الحوار للنشر والتوزيع اللاذقية سوريا، ص192.
- 9-بدوي عبد الرحمان، موسوعة الفلسفة، ط31، لبنان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، ص13.
- 10-صليبا جميل، المعجم الفلسفي، ص141.
- 11--سليماني أحمد ياسين، 2009، التجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر، ط1، سوريا، دار الزمان للنشر والتوزيع. ص139.
- 12-حرب علي، 2002، العالم ومآزقه، ط1، المغرب، منشورات المركز الثقافي العربي الدار البيضاء. ص282.
- 13-جنون عبد المجيد، صورة الفرنسي في الرواية المغربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص81.
- 14-عمارة محمد، الإسلام والآخر، من يعترف بمن؟ ومن ينكر من؟ مكتبة الشروق الدولية د، ت، ص144.
- 15-شلتاغ عبود، 1998، الأدب والصراع الحضاري، دار المعرفة، دمشق، سوريا، ص144.
- 16-محمود إبراهيم رزان، 1995، خطاب النهضة والتقدم في الرواية العربية المعاصرة لبنان، دار الشروق، بيروت، ص226.
- 17-مستغاني أحلام، 1983، ذاكرة الجسد، دار الآداب، بيروت، لبنان،، ص36-.
- 18-وطار الطاهر، 1983، اللاز ط3،، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص16.
- 19-المصدر نفسه، ص13.
- 20-المصدر نفسه ص10.
- 21-المصدر نفسه ص9.
- 22-المصدر نفسه ص61.
- 23-المصدر نفسه ص88.
- 24-المصدر نفسه ص89.
- 25-المصدر نفسه ص101.
- 26-المصدر نفسه ص102.
- 27-مصباحي الحبيب، ديسمبر 2012، تمثلات الذات والآخر في الرواية الجزائرية، مجلة إشكالات، المركز الجامعي تامنغاست، الجزائر، العدد الأول، ص21.
- 28-الزاوي أمين 2014، الملكة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ص5.
- 29-المصدر نفسه، ص48.
- 30-المصدر نفسه، ص49.
- 31-المصدر نفسه، ص67.

- 32- المصدر نفسه، ص 13.
- 33 – المصدر نفسه، ص 142.
- 34-المصدر نفسه، ص 116.
- 35- المصدر نفسه، ص 152.
- 36-المصدر نفسه، ص 217.
- 37- المصدر نفسه، ص 218.
- 38- أسعيد سعدي و مليكة بن بوزة ،، ثنائية الأنا والآخر في الرواية الجزائرية ، الملكة لأمين الراوي أنموذجا، مجلة دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية ، جامعة محمد بوضياف لمسيلا، المجلد 06، العدد، الثاني ، ص 224.
- 39- الملكة، ص 21.
- 40-الملكة ، ص 43.
- 41- زهرة ديك ، هكذا تكلم الطاهر وطار ، منشورات دار الهدى عين مليلة الجزائر، ص 9.